



سالم المشهور

مأزق العلاقة بين الإسلام والغرب

عرفت الديانة المسيحية اللاهوت الدفاعي، الذي نشأ بقصد الدفاع عن المعتقد المسيحي، وعرفت حضارتنا الإسلامية «علم الكلام» الذي نشأ في الأصل بقصد الدفاع عن الإسلام، أمام الشبهات التي يطرحها أصحاب الديانات الأخرى، أو تلك التي يطرحها الزنادقة. هذه مقدمة للحديث عن مقال للدكتور حسن حنفي يحمل عنوان «الإسلام والغرب» والمقال بامتياز نستطيع أن ندرجه في اللاهوت الدفاعي، أو بأدبياتنا الإسلامية، يمكننا هذه مقالا في علم الكلام في الرد على شبهات الغرب التي يوجهونها إلى الإسلام.

أصول الفقه وبعضها من علم الكلام، ليثبت أن الإسلام والعقل توأمان، لا انفصال ولا انفكك بينهما، ومن تلك المقولات: العقل مناط التكليف، والنظر أول الواجبات والقياس مصدر من مصادر التشريع، وإيمان المقلد لا يجوز، والتقليد ليس مصدرا من مصادر العلم.

ثم تطرق إلى الحديث عن وضع المرأة في الإسلام، وناقش المسائل التي يثيرها البعض حول حقوقها في الإسلام، كنصيبها في الإرث ومسألة قوامة الرجل عليها وغيرها من المسائل، التي يكثر فيها الشد والجذب بين الأطراف المختلفة. وكعادته في هذا المقال، سلك حنفي مسلكا دفاعيا عن هذه الأحكام، معتمدا على ربط هذه الأحكام بالسياقات الاجتماعية التي وجدت فيها، فهو يرى أن الشريعة أتت في بيئة لم يكن للمرأة فيها حق الحياة، كانت توأدا عارا، فرد الإسلام لها حق الحياة، لم يكن لها نصيب في الميراث ولا تعتبر شهادتها، فجعل لها الإسلام شخصية اعتبارية في الاحتفاظ باسمها وحققها في الممارسات التجارية.

ثم تحدث عن المواطنة في الإسلام، ورد على من يزعم أن الإسلام لم يعرف المواطنة والمساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين، ولم يستشهد سوى بميثاق المدينة الذي عقده النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل المدينة من مسلمين ويهود وغيرهم في بداية الدعوة، وبغض النظر عن مدى وثاقه صحيفة المدينة، إلا أن الفقه الإسلامي لأكثر من ألف سنة لم يجعلها أساسا لبناء العلاقة مع الآخر، وهذا ما لم ينتبه إليه الباحث. وقد وقع حنفي في خطأ كبير عندما ادعى أن مصطلح أهل الكتاب ومصطلح أهل الذمة هما من نحت الفقهاء قديما، مع أن مصطلح أهل الكتاب مصطلح قرآني ورد في غير موضع من القرآن، وهو لا يحمل أي دلالة سلبية، أما مصطلح أهل الذمة فقد ورد في عدة أحاديث صحيحة في المصادر المعتمدة.

بعد هذه القراءة النقدية في مقال الأستاذ حنفي، أحب أن أقول: نحن بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في تراننا، والشجاعة في نقده، لا أن ننهج منهج الدفاع عنه في كل أجزاءه فتراننا غير معصوم، وتاريخنا ليس تاريخ ملانكة، فلا معنى لكل هذا التأويل والدفاع عن تجربتنا وثقافتنا، فلنخفف من اللاهوت الدفاعي، الذي في كثير من الأحيان يعتمد على العاطفة والمغالطات المنهجية كما حصل في بعض أجزاء هذا المقال.



والمشهور. وبعد التأصيل التاريخي لعلاقة الإسلام بالغرب، بدأ الباحث بالحديث عن العناصر التي ينشأ عنها التوتر بين الإسلام والغرب، فحنفي يرى أن الغرب وقع في سوء فهم للإسلام، فالغرب في نظره لم يفرق بين ما هو من جوهر الدين، وما هو من صنع التاريخ. وكانت القضية الأولى التي أوردتها، مسألة ربط الإسلام بالإرهاب وعدم الاعتراف بالآخر. فالكاتب يرى أن هذه صورة مشوهة، فالإسلام دين التحرر من القهر والعدوان، وكان رده خاليا من مناقشة أدلة الطرف الآخر، واكتفى بإيراد جمل قصيرة في تمجيد الإسلام! والنقطة الثانية التي ناقشها كانت مسألة ربط الإسلام بالعنف وبالتحديد مسألة الحدود، فالباحث يرى أن هذه الصورة إعلامية صرفة! المقصود منها تشويه صورة الإسلام، وأنا هنا لا أفهم لماذا الإصرار باستمرار على افتراض أن الآخر يريد تشويه صورة الإسلام.

ثم تطرق إلى اتهام الغرب الإسلام بالتعصب والتشدد ورفض الحوار، وأجاب عن ذلك بقوله: «لا يوجد كتاب سماوي حاور المخالفين مثل القرآن الكريم، الذي حاور إبليس والكفار والمشركين وغيرهم».

وعلى صعيد إثبات عقلانية الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية حشد حنفي مجموعة من المقولات الدينية مستقاة من التراث، أغلبها من

ومن القضايا المهمة التي تناولها حنفي، قضية الصورة النمطية التقليدية التي يحملها الغرب عن الحضارة الإسلامية، وهو يرى أنها صورة موروثية عن احتكاك الغرب بالعثمانيين وهذه الصورة. حسب وجهة نظره. هي التي تناقلها الاستشراق التقليدي في القرن التاسع عشر، ثم يصف صورة الإسلام التي أخذها الغرب بقوله: «أخذ الغرب صورة الإسلام الذي يثبت المعجزات وليس قوانين الطبيعة والسحر والخرافة وليس العقل والبرهان، وحقوق الراعي وواجبات الرعية، وليس حقوق الرعية وواجبات الراعي». وفات حنفي أن القرآن الكريم ذكر المعجزات وتحدث عنها في غير موضع، وفاته أيضا أن السحر له حضور في النص القرآني بغض النظر عن تفسيره.

ومن واجبي بعد ذكرى لكلام الأستاذ حنفي هذا، أن أطرح هذا السؤال: هل فعلا الصورة التي تناقلها الاستشراق التقليدي في القرن التاسع عشر هي فقط مأخوذة عن الاحتكاك بما يمكن أن نسميه الإسلام العثماني؟ الذي أراه أقرب إلى المنطق أن الاستشراق تعددت عنده نوافذ التعرف على الحضارة الإسلامية، ولا شك عندي أن الاستشراق الغربي لم يكتف بنافذة الأتراك في معرفة الإسلام، خاصة أن الاستشراق في تلك المرحلة كان في الدرجة الأولى يخدم أغراضا استعمارية، وهذا يستدعي توسيع دائرة النوافذ التي يطل من خلالها على

في بداية مقاله، تحدث حنفي عن كون موضوع الإسلام والغرب ليس موضوعا جديدا بل هو في نظره «موضوع قديم منذ انتشار الإسلام»، ثم انطلق للحديث عن الصراع بين الشرق والغرب وأضفى عليه بعدا تاريخيا، وأشار إلى أثر هذا الصراع التاريخي على حضارتنا بقوله: «صراع قديم مازالت جذوره متأصلة في اللاوعي الحضاري حول البحر الأبيض المتوسط»، ثم أتجه إلى الحديث عن عنوان مقاله «الإسلام والغرب» وبين أن هناك إشكالا في المصطلح لأنه يقابل بين حضارة ومنطقة جغرافية، والأصح حسب رأيه أن تتم المقابلة بين حضارتين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، أو بين منطقتين جغرافيتين بين الشرق والغرب. وأجدني هنا أتفق معه في ملاحظته هذه، فمن غير المنطقي أن نقابل بين الإسلام كدين وثقافة وحضارة، والغرب كمنطقة جغرافية إلا على ضرب من ضروب المجاز! ولكن مسaire للأدبيات الشائعة اليوم، أتر حنفي هذا العنوان.

وفي سياق حديثه عن العلاقة بين الإسلام والغرب، حاول حنفي أن يقدم الفترة الأندلسية تحت الحكم الإسلامي، كمثال أوحده لحوار الحضارات والتعايش والوثام بين الإسلام والغرب ومختلف الأعراق والثقافات والأديان. وفي الحقيقة رأيه هذا فيه انحياز واضح للنموذج العربي في الأندلس، يصل إلى درجة التقديس، ولا أريد بكلامي هذا أن أنكر وجود قدر كبير من التسامح مع الآخر في التجربة الأندلسية الإسلامية، ولكن في الوقت ذاته أجدني مضطرا إلى التأكيد على وجود حالات من التعصب والإقصاء مورست اتجاه الآخر في الفترة الأندلسية، فأهل الكتاب الذين هم السكان الأصليون للأندلس عوملوا كأهل ذمة، وفرضت عليهم قيود معينة تقيد حريتهم وحولت بعض كنائسهم إلى مساجد، كجامع قرطبة، الذي كان في الأصل كنيسة، بل إن الإقصاء في بعض الأحيان امتد، ليشمل بعض الفقهاء والفلاسفة، الذين أحرقت كتبهم في الأندلس كابن حزم، وابن رشد، والغزالي.

ثم تطرق حنفي لنقد أسطورة الجواهر الثابتة للحضارات ونبه إلى ضرورة تجنب الوقوع في إصدار الأحكام المطلقة التي لا تراعي المراحل التاريخية والظروف الاجتماعية والسياسية، التي تنشأ فيها كل حضارة. وإن كان مقاله لم يخل في الحقيقة من إصدار أحكام مطلقة على الحضارة الغربية.